الفنون الجميلة
فى ضوء نظرية المقاصد العامة للشريعة

إبراهيم البيومى *

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل علاقة الفنون الجميلة بنظرية المقاصد العامة للشريعة. والسؤال الرئيسى هو: هل يمكن تحقيق المقاصد العامة للشريعة فى الواقع الاجتماعى دون توظيف الفنون الجميلة فى خدمتها؟ ومن أهم نتائج الدراسة: أن بعض النظم الشرعية أسهمت فى إبداع كثير من الفنون الجميلة، وأن هذه الفنون بأنواعها المختلفة قد أسهمت فى تحقيق مقاصد الشريعة، كما أسهمت فى الارتقاء بنوعية الحياة فى الحضارة الإسلامية بصفة عامة.

تمهيد

يكتنف علاقة الفنون الجميلة بنظرية المقاصد العامة للشريعة غموض وشك ونفور فى الوعى الإسلامى المعاصر بصفة عامة، وفى وعى جيل الشباب بصفة خاصة. وفى الوقت الذى يجد فيه هذا الجيل فرصة كبيرة للانفتاح على مختلف ألوان الفنون والآداب العالمية والمحلية عبر الوسائط المتطورة لنقل المعلومات، يجد نفسه لا يمتلك رؤية واضحة لوظيفة هذه الفنون، وتغيب عنه أهميتها فى الحياة، ولا يستطيع التفريق بين النافع منها والضار؛ ناهيك عن علاقتها بقيم المرجعية الإسلامية ومقاصدها العامة.

وإذا نظرنا فى التراث الموروث بشأن نظرية المقاصد، فإن أغلب ما نجده من شروح فى المصادر القديمة لهذه النظرية يدور حول "حفظ" هذه المقاصد من جهة الصيانة لا من جهة التحصيل، وبأسلوب الزجر والعقاب، لا بأسلوب الترغيب

* مستشار، قسم بحوث وقياسات الرأى العام، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثانى والخمسون، العدد الأول، يناير ٢٠١٥.

والثواب. ونادرًا ما نجد شرحًا لتلك المقاصد من جهتى التحصيل والصيانة. ومن الأدلة على ذلك أن الأمثلة الشارحة لكيفية "حفظ" العقل، أو النسل، أو حفظ المال مثلاً، لا تكاد تتجاوز: جلد شارب الخمر، وجلد الزانى والزانية إن كانا غير محصنين، وقتلهما رجمًا إن كانا محصنين، وقطع يد السارق، أو تعزيره بحسب الشروط والضوابط التى بيَّنها الفقهاء. ولا نكاد نجد شرحًا لأى من تلك المقاصد من جهة التحصيل؛ أى بناء القدرة العقلية بالتربية والتعليم والتثقيف وضمان الحق في ذلك كله لكل إنسان كى تتوافر فرص متساوية لحفظ العقل وبنائه على نحو يكون معه قادرًا على التفكر والابتكار، وكذلك بالنسبة لصون النفس صيانة تكون معها فى طمأنينة وسلام وراحة بال؛ بحيث تنعكس آثارها الإيجابية على من حولها.

وإذا فتحنا باب النظر إلى مقاصد الشريعة من جهة كيفيات تحصيلها ابتداءً؛ فسوف نكتشف أن نظرية المقاصد بالغة الثراء والاتساع، وسوف يتبين لنا أن "الفنون الجميلة" داخلة بالضرورة فى خدمة المقاصد العامة للشريعة؛ فبصر الإنسان – مثلاً – إذا كان لا يقع غالبًا إلا على مشاهد جميلة، وسمعه إذا كان لا يستمع إلا الطيب من القول؛ فإنه سيتمتع – على الأرجح – بصحة عقلية ونفسية تجعله أكثر إيجابية وأكثر إقبالاً على الحياة ومحبة لغيره. أما إذا حدث العكس، ووقع بصره غالبًا على مشاهد قبيحة المنظر، واستقبل سمعه ما يسترذل من القول؛ فإنه سيعانى –غالبًا– من اعتلال فى صحته العقلية، واختلال فى صحته النفسية، وسيعانى كثيرون معه من حوله.

وسؤالنا هنا هو: هل يمكن تحقيق المقاصد العامة للشريعة دون توظيف "الفنون الجميلة" فى خدمة هذه المقاصد ؟. وهل يمكن فهم ثراء الحضارة الإسلامية وازدهارها الذى ترافق مع إبداعات الفنون الجميلة بعيداً عن نظرية المقاصد العامة للشريعة؟. الإجابة التى أقترحها فى هذا البحث على هذين السؤالين هى: لا. وأزيد على هذا فأقول أيضًا: إن بعض النظم الشرعية الإسلامية قد أسهمت بشكل مباشر، أو غير مباشر فى إبداع كثير من أشكال الفنون الجميلة وتطويرها.

وقد يكون من الأسباب الرئيسية التى تفسر سمات الغموض والشك والنفور من الفنون فى الوعى الاجتماعى العام؛ أن أكثر ما تبثه مؤسسات التربية والتنشئة الفكرية والثقافية فى أغلب مجتمعاتنا الإسلامية عن علاقة الفنون بمقاصد الشريعة يستند فى أحسن الأحوال إلى رؤى تقليدية منقطعة الصلة بالواقع من جهة، أو يختزل تلك العلاقة فى عدد محدود من النماذج والأمثال الشارحة مقطوعة الصلة بالواقع المعاصر من جهة أخرى. والأكثر من ذلك هو التجاهل والإغفال لهذه العلاقة من أساسها؛ وهو ما يغذى الشك تجاه مختلف الفنون والآداب لدى السواد الأعظم من المواطنين، ويصل الأمر إلى حد النفور منها ورفضها باسم التدين أو الالتزام، أو باسم المحافظة على الأصول والتقاليد لدى أبناء التيارات الإسلامية؛ وخاصة أولئك الذين يشاركون فى المجال العام ويتطلعون إلى النهوض بمجتمعاتهم.

ولسنا معنيين كثيرًا فى هذه الدراسة بالإجابة على السؤال الذى يقول: هل الفنون الجميلة وما يلحق بها من "آثار" أو"أوابد" ، أو "ذمم سياحية وتاريخية": حلال، أم حرام؟ مندوبة أم مكروهة أم مباحة؟. ذلك لأننا نعتقد أن مثل هذا السؤال قد جرى تجاوزه ولم يعد الجدل حوله ذا شأن. ونعتقد أن هناك أدلة قوية وتحظى بقبول واسع، وهى فى مجملها تؤكد على أن القاعدة العامة هى: أن كل الفنون مباحة ما لم تمس وحدانية الله تعالى، أو تتعدى على أنبيائه ورسله، أو تمجد الوثنية ومعتقداتها. ولهذا سنعرض للحكم الشرعى فى الموضوع باختصار دون إسهاب ولا إخلال بالمقصود.

إن كون الإسلام منهجًا شاملاً للحياة يعنى – بالضرورة– أن الفنون والآداب بمختلف أشكالها هى جزء أصيل من هذا "المنهج" ؛ ليس هذا فحسب، وإنما تحتاج كل الفنون إلى رؤية واضحة تضعها فى مكانها الصحيح من هذا المنهج الشامل، وتجعلها فى خدمته. ولا مجادلة فى ذلك ؛ وخاصة إذا علمنا أن ميدان عمل الفنون الجميلة وحواشيها هو بناء "الوجدان"، وترقية "الذوق"، ومن ثم السمو بالعواطف والمشاعر، وتغذية "الروح" بما يسهم فى تحقيق السكينة والطمأنينة الفردية والجماعية. وميدان الوجدان هو ذاته الميدان الأول لعمل رسالة الإسلام في النفس الإنسانية

المهيأة بحكم الفطرة للاختيار بين الخير والشر، وبين النافع والضار، وبين الهداية والغواية، بل بين الإيمان والكفر.

السؤال الذى شغلنى فانشغلت به هو: ما علاقة الفنون الجميلة بنظرية المقاصد العامة للشريعة الإسلامية من جانب؟. وكيف تجلت هذه العلاقة فى تراث الحضارة الإسلامية ونظمها المعمارية وثروتها الأثرية من جانب آخر؟. إن نقطة البدء فى الإجابة على هذا السؤال بجانبيه هى: أن التوجيهات القرآنية والنبوية بشأن الجماليات والفنون المختلفة قد شجعت على ظهور ألوان كثيرة من الإبداعات الفنية والجمالية؛ حتى إن بعض المهندسين المعماريين حاولوا محاكاة الأوصاف الجمالية القرآنية للجنة؛ وقصر الحمراء بغرناطة من أشهر الأمثلة على هذه المحاولة!. وتجلت تلك الإبداعات أيضًا فى النظم المعمارية، وفى كيفيات تخطيط المدن والحواضر؛ إضافة إلى أن بعض النظم الشرعية، مثل نظام الوقف، قد اقتضى تطبيقه إبداع كثير من ألوان الفنون الجميلة، ومن ثم أسهم فى تكوين ثروة أثرية عملت فى خدمة المقاصد العامة للشريعة بطرق مباشرة وغير مباشرة.

أولاً: لمحة عن الفنون الإسلامية ومقاصدها

للفنون الجميلة أصول شرعية مستمدة من القرآن الكريم وسنة النبى محمد صلى الله عليه وسلم. ففى القرآن نجد حديثًا عن التماثيل ومعناها الصور الملونة أو المخروطة فى موقفين مهمين: أولهما خاص بسيدنا إبراهيم عليه السلام، وما ورد بشأنه فى سورة الأنبياء قال تعالى "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصناكم بعد أن تولوا مدبرين. فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين".(الأنبياء: ٥١-٥٩). أما الموقف الثانى فهو

عند الكلام عن سليمان عليه السلام فى سورة سبأ قال تعالى:" ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه. ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور". (سبأ: ١٢-١٣).

وفى ضوء هذين الموقفين يتضح أن التماثيل حرام فى الموقف الأول مع سيدنا إبراهيم، وحلال فى الموقف الثانى من سيدنا سليمان؛ بل إن عملها مع سليمان عليه السلام بإذن من الله تعالى، وكانت فضلاً من أفضاله على آل داود تستحق الشكر، ولم يكن سليمان يهدف بطبيعة الحال أن يتخذها أصناماً يعبدها من دون الله. وعلى أساس هذا التوجيه القرآنى يمكن فهم الأحاديث النبوية المتعلقة بالتصوير وغيره من صيغ الفنون الجميلة. فبعض ما رود فى الأحاديث النبوية بشأن تحريم صناعة التصوير إنما كان يعنى ما يصنع منها بقصد العبادة؛ أى صناعة الأصنام[١]. ويؤيد ذلك أن العمل الأساسى لصانع التصاوير فى الجاهلية هو "صناعة الأصنام"[٢]. وإذا كان الإسلام قد نهى عن عبادة التصاوير، إلا أنه لم يحظر صناعتها. ومن الأدلة على ذلك أن ابن عباس أباح لصانع التصاوير – الذى جاء ليستشيره فى أمر صناعته – أن يصور فقط الشجر وكل ما ليس فيه روح"[٣]. أى أنه أباح تصوير ما ليس له قدرة ظاهرة حتى لا يظن المصور أنه قادر على الخلق، وحتى لا يزعم إنسان أن الصورة لها قدرة ، أو قوة، أو عمل؛ وبذلك تزول شبهة الرجوع إلى عبادة الأوثان والأصنام، ولا سيما أن القوم كانوا حديثى عهد بتلك العبادة.

ويتبين من خلال القرآن الكريم أن إبداعات الله سبحانه وتعالى تجمع بين النفعية والجمال والزينة، وقوله تعالى: "إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب" (الصافات، آية ٦)، وقوله: "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون" (النحل، آية ٦)، وقوله: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا" (الكهف، آية ٧).

وقد تناول القرآن الكريم مجالات الجمال المتعددة من المظهر، كما فى قوله تعالى: "يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد" (الأعراف، آية ٣١). ودعا إلى التدبر والتأمل فى خلق الله كما فى الآيات السابقة. ودعا إلى المعنى والسلوك الذى يجب أن يتحلى به المسلم كالصبر والصفح، قال تعالى: "فاصبر صبرًا جميلا" (المعارج، الآية ٥). ومن هذا المنطلق، كانت فلسفة الفنان المسلم، الذى ما استخدم فنه إلا كخدمة لمرض ما، أو وظيفة معينة مستعينًا بإضافة عناصر فنية، تضفى على عمله الفنى جمالاً فى المظهر، وجوهرها يعمل على تدعيم القيم الروحية، واضعًا نصب عينيه عقيدته الدينية، فلم يعرف اللوحات الفنية المستقلة، كما عرفها الغربيون، فكان يرمز إلى الطبيعة، ولا يصورها، أو يقلدها خشية تقليد خلق الله عز وجل. فاستخدم الرسومات الزخرفية المحتوية على عناصر نباتية وحيوانية بشكل محورى، بعيدًا عن مشابهة خلق الله، ولم يحترم النسب الطبيعية، ولم يكن لعلم التشريح أى دور فى فنونه. ولجأ إلى التجريد بطريقة مختلفة عن فنون الغرب، فالتجريد فى الفن الإسلامى عبارة عن رؤية روحية للأشياء بمعنى رؤيتها فى شكلها النوعى، وليس فى شكلها الكمى.

ومن الثابت فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى العام أن المسلمين عرفوا التصوير البعيد عن الوثنية فى الصدر الأول للإسلام. ويشهد بذلك تعامل النبى صلى الله عليه وسلم بنقود عليها صور[٤]، وإباحة الأستار والوسائد والثياب المزخرفة بالصور، و"اللعب" التى كانت فى شكل كائنات حية. وعلى ذلك ليس ثمة جدل يعتد به فى أن الإسلام أباح التصوير وغيره من ألوان الفنون الجميلة ما دامت بعيدة عن مقاصد الجاهلية، ومنفكة عن شبهة منافسة الخالق سبحانه وتعالى[٥].

ونحن نرجح أن تكون النشأة العملية الأولى للفنون الجميلة الإسلامية قد بدأت فى العام الأول للهجرة النبوية من مكة إلى المدنية؛ حيث ظهر نموذجها الأول فى تخطيط مسجد قباء؛ وهو أول مسجد بناه الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان نزوله صلى الله عليه وسلم أرض قباء فى ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، الموافق

سبتمبر من سنة ٦٢٢م. ورغم ندرة المعلومات التى وصلتنا عن تفاصيل تصميم ذلك المسجد ومكوناته المعمارية؛ إلا أن المتوافر من تلك المعلومات يؤكد فى أغلبه على أن البساطة والانسجام بين عناصر المسجد المعمارية والوظيفية هى أوضح المعالم الجمالية الأولى التى تجلت فى مسجد قباء، ومنه انتقلت تلك العناصر إلى بقية المساجد. ولم يمض وقت طويل حتى "اتخذ الفن الإسلامى المعمارى الجديد أهم أشكاله المميزة خلال العقدين الأخيرين من القرن الأول الهجرى، وهما العقدان الأولان من القرن الثامن الميلادى. وأشهر الأمثلة على ذلك هو الجامع الأموى فى دمشق"[٦]. ودخل"المسجد" فى صلب التخطيط العمرانى للمدن والأمصار؛ وأصبح لا يمكن تصور مدينة إسلامية إلا بوجود المسجد الجامع فى وسطها. ثم تكاثرت الفنون المرتبطة بتصميم المساجد وتشييدها، وتطورت بمرور الزمن مع انتشار الإسلام ودخول أمم ذات حضارات عريقة فيه، ومنها حضارات: الصين، والهند، وفارس، وروما، واليونان[٧].

ودون الدخول فى تفاصيل تاريخ الفنون التى عرفتها الحضارة الإسلامية فى تاريخها الطويل؛ فإن مقتنيات المتاحف والمعارض المتخصصة فى الفنون الإسلامية وآثارها شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا[٨]– وأحدثها هو متحف "السلام عليك أيها النبى"[٩]– تدلنا على أن الفنون الجميلة بمختلف أنواعها نالت حظًا وافرًا من العناية والاهتمام، وأنها أيضًا قد انفتحت على مختلف الخبرات الحضارية وهذبتها واستوعبتها وأضافت إليها وصبغتها بطابعها الإسلامى الخاص. كما تدلنا تلك الآثار على أن "وجود الله" هو الأساس العقيدى الذى صبغ كل أعمال الفن الإسلامى، وكما يقول روجيه جارودى "إن كل غرض حتى ذلك الأكثر استعمالاً؛ سواء كان سيفًا أو إبريقًا، أو طبقًا من نحاس، أو سرج حصان، أو منبرًا، أو محرابًا فى مسجد؛ هو محفور ومرصع أو مطروق ليشهد أنه علامة على وجود الله"[١٠].

ورغم كثرة البحوث فى قضايا الفنون الإسلامية ومشكلاتها النظرية والعملية؛ فإن السؤال عن علاقة هذه الفنون بالمقاصد العامة للشريعة، لم يحظ بما يستحقه من

الدرس– والتأصيل. ولا تزال أغلب البحوث فى الفنون الإسلامية معنية بالجوانب التاريخية، أو الفقهية (الحلال والحرام)، أو المعمارية والهندسية، أو بعلاقات التأثير والتأثر بين الفنون الإسلامية وغيرها من فنون الحضارات الأخرى. أو هى معنية بمسائل وموضوعات مفردة مثل: فن الرسم، أو فن التصوير، أو فن التمثيل، أو فن الشعر، أو فن الموسيقى، أو فن الغناء، أو فن الزخرفة والزركشة ؛ دون محاولة اكتشاف علاقة كل هذه الفنون بالمقاصد العامة للشريعة.

قديمًا؛ تناول علماء المسلمين الفنون الجميلة ومسائلها بقدر كبير من التوسع مع التعمق الفلسفي. فالمعتزلة مثلاً ربطوا الأخلاق والجمال بالعقل وبالشرع معًا؛ وذهبوا إلى أن ما حَسُنَ فى نظر العقل يكون حسنًا فى نظر الشرع. وابن سينا (٣٧٠–٤٢٨هـ /٩٨٠–١٠٣٧م) رأى أن "جمال الشيء وبهاءه هو أن يكون على ما يجب له"[١١]. وابن طفيل كتب رسالة في "فن الموسيقى" استعاد فيها النظرية الكلاسيكية حول التوافق بين أجناس الألحان والأمزجة البشرية؛ وأكد على الامتدادات التربوية والتطبيقية لهذا التوافق؛ بما فى ذلك التطبيقات الطبية عنده[١٢]. أما الإمام أبو حامد الغزالى فقد قسم الجمال إلى "جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وجمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة"[١٣]. وشرح الغزالى كيف أن الموسيقى أو فن"السماع" "يثمر حالة فى القلب تسمى الوجد. وأن الوجد يؤدى إلى تحريك الأطراف بحركات غير موزونة تسمى اضطراب، أو بحركات موزونة تسمى التصفيق والرقص. وأكد على أن كل سماع يتم عن طريق قوة إدراك. وأن قوى الإدراك الحسية هى الحواس الخمس... وأما القوى الباطنة فمنها قوة العقل وقوة القلب. وكل قوة من هذه القوى تلذذ بموضوعها إذا استحق هذا الموضوع هذا الشعور باللذة[١٤].

ويرجع الإمام الغزالى كل ألوان الجمال والخير إلى الله تعالى المتصف بصفات الجمال والجلال فيقول" لا خير ولا جمال ولا محبوب فى العالم إلا وهو حسنة من حسنات الله، وأثر من آثار كرمه، وغرفة من بحر جوده؛ سواء أُدرك هذا

الجمال بالعقول، أو بالحواس، وجماله تعالى لا يتصور له ثان، لا فى الإمكان ولا فى الموجود"[١٥].

ونستشف من مثل تلك الرؤى العقيدية والفلسفية للفنون والجماليات الكونية والنفسية أن فلاسفة المسلمين قد أدركوا عمق علاقة الفنون بمقاصد الشريعة؛ وخاصة بمقاصد حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العدالة، وحفظ الحرية. ومقتضى كلامهم أن التأمل فى الجماليات مؤد حتماً إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، وإلى الاتزان العقلى، والهدوء النفسى؛ على مستوى الأفراد والجماعات. ومن ثم يسهم الاهتمام بتلك الجماليات وفنونها فى تقوية ما نسميه "الصحة العامة"، و"السلم الأهلى" وفق مصطلحاتنا المعاصرة.

أما حديثًا؛ فبحوث العلماء فى موضوع الفنون الجميلة وعلاقتها بمقاصد الشريعة قليلة؛ بل هى نادرة جدًا، ومنها مثلاً: كتاب الدكتور محمد عمارة "الإسلام والفنون الجميلة". وكتاب الرئيس على عزت بيجوفتش "الإسلام بين الشرق والغرب".

فالدكتور عمارة بيَّن فى كتابه أن الفنون يجب أن تكون جميلة فى ذاتها، وجميلة فى تأثيراتها ووظائفها ومقاصدها، وأن "فنون الدعة والبطالة والتواكل والاسترخاء والسطحية والتفاهة، غير فنون الحمية والعمل والعزم والانتماء والنهوض"[١٦]. وهو يرى أن "الفن الجميل... مهارة يحكمها الذوق الجميل والمواهب الرشيدة؛... لإثارة المشاعر والعواطف". وذهب الدكتور عمارة إلى أن خروج المهارات والفنون عن المقاصد الرشيدة يجردها من شرف الاتصاف بالجمال". واستشهد على ذلك بقول ابن سينا الذى أوردناه قبل قليل وهو أن "جمال كل شىء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له". وينتهى الدكتور عمارة إلى أن الفن المتسق مع الإسلام هو الذي يحقق مقاصده فى أمته، وفى الإنسانية، عندما تشيع فيه الصبغة التى صبغت بها عقيدته وميزت بها أيديولوجيته إبداع الإنسان الفنان، إنها خيوط غير مرئية تلك التى تربط الوضع الإلهى بالإبداع الإنسانى الجميل"[١٧].

أما الرئيس بيجوفتش، فقد رسم معالم نظرية إسلامية فى الفنون من منظور إسلامى وبرؤية فلسفية عميقة. وقد ذهب إلى أن وجود عالم آخر ونظام آخر إلى جانب عالم الطبيعة هو المصدر الأساسى لكل دين وفن؛ فإذا لم يكن هناك سوى عالم واحد لكان الفن مستحيلاً. وهو يعتبر العمل الفنى من حيث هو إبداع "ثمرة للروح". وبينما يكون المطلوب فى العلم أن يكون دقيقًا؛ فإن المطلوب فى الفن هو أن يكون صادقًا؛ لأنه يعكس النظام الكوني دون أن يستفسر عنه(١٨).

وإذا نظرنا إلى المدارس الغربية الحديثة فى مجال الفنون الجميلة من حيث فلسفتها ووظائفها وأنماطها المختلفة؛ فسوف نجدها بالغة الثراء، وسنجد أن فيها ما لا يجافى الرؤية الإسلامية ويتفق معها حينًا، كما أن فيها ما يجافيها ويتناقض معها أحيانًا. ولا يصح أن نتجاهل "جماليات" الرؤية الغربية بحجة أن لها قبائح؛ مثلما لا يصح أن نتهاون بشأن قبائحها بحجة أن لها جماليات.

هناك من علماء الغرب وفلاسفته المعاصرين من ذهب إلى أن الشىء الجميل هو ناتج الممارسة الاجتماعية التاريخية. ويعتبر هيجل من أشهر القائلين بذلك. وهناك من لاحظ – بحق– أن ظاهرة الانسجام وهى أساس الشعور بالجمال، وكذلك"عدم الانسجام"، الذى هو أساس الشعور بالقبح؛ ترجعان إلى تاريخ طويل في حياة الإنسان. ومنهم من ركز على علاقة الفن بالحياة، وبالدين، وبالعلم؛ وخلصوا إلى أن الفن أداة ربط اجتماعى، ووسيلة تطهير للنفس الإنسانية، وضمانة للتماسك والتجانس بين أبناء المجتمع الواحد. وهناك علماء وفلاسفة آخرون ربطوا بين الجمال والأخلاق ونبهوا إلى الدور التربوى لكليهما، بل وأقاموا علاقة وثيقة بين "الخير– والحق– والجمال"(١٩). ومن هؤلاء مثلاً الأديب الروسى بلنسكى (١٨١١–١٨٤٨م) الذى قال: "إن الجمال شقيق الأخلاق. والصور الفنية الإيجابية التى تعكس حياة الناس ونبلها وجمالها تفرض الاحترام والحب والإعجاب المخلص. وتعطى أنماط الأبطال الحقيقيين فى الحياة للقارئ والمتفرج متعة وبهجة جماليتين. أما الصور السلبية فهى تثير مشاعر الاستنكار الأخلاقى، والاحتقار التى ترتبط ارتباطًا وثيقًا فى

طابعها بمشاعر الازدراء والاحتقار التى نحسها عندما ندرك ما هو قبيح ودنىء. ومن ثم فإن وحدة الجمالى والأخلاقى هى أساس الدور التربوى ودور التحويل الأيديولوجى اللذين تقوم بهما الفنون فى الحياة الاجتماعية"[٢٠].

للفنون- إذن- مهمات لا غنى عنها فى كل حضارة من الحضارات؛ وإن اختلفت مرجعياتها الفلسفية، أو تباينت غاياتها النهائية. وتكاد أغلب الرؤى الحضارية والفلسفية تشترك فى أن أهم مقاصد الفنون تتمثل فى: تنمية العاطفة والوجدان، وتنمية مهارات الحواس وتدريبها على الإجادة والإتقان، وتحفيز الإنسان على الإبداع والابتكار وتأكيد الذات، وضبط الانفعالات وترويض النزعات الجامحة ووضعها فى حالة اتزان، وتقدير العمل اليدوى ومهارات الصناعة، وفتح المجال أمام الخيال واستثماره فى خدمة الإنسان والعمران. ورغم نبل هذه الغايات؛ فإن الفنون لم تسلم من سوء الاستخدام لتأجيج الصراعات الدينية والمذهبية، وتحقيق مآرب اقتصادية وسياسية على حساب الغير؛ حتى إن بعض الحركات ذات "النزعة الإنسانية" العالمية لا تخفى رغبتها فى استبدال الفن بالدين[٢١]. وفى سبيل ذلك تقوم تلك الحركات بتوظيف المعارض الفنية والمسلسلات التليفزيونية والأفلام السينمائية، والأعمال المسرحية والغنائية، ومختلف الفنون التشكيلية.

وإذا كانت الفنون الإسلامية تشترك مع غيرها من الفنون فى أغلب تلك الغايات، إلا إنها تظل مرتبطة بتصور الوجود من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان والخالق سبحانه وتعالى. ووفق هذا التصور فإن الفنون الإسلامية ترسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود. ولهذا اتسع نطاق عمل الفنون الجميلة فى حضارتنا الإسلامية؛ ولدينا سوابق بارعة الجمال فى: النقش، والنحت، والرسم والزخرفة، والتصوير، والحفر، والموسيقى، والشعر، والغناء، والخط، والمنمنمات، وأيضًا فى أصول تنظيم المدن والأمصار وتخطيطها، وهندسة البناء ...إلخ.

فى كتب أصول البنيان والخطط العمرانية للأمصار والمدن الإسلامية[٢٢] نجد تشديدًا على ضرورة توافر الجوانب الجمالية، وتأكيدًا على وجوب مراعاة معايير الجودة فى التخطيط وهندسة البناء، ونجد اهتمامًا خاصًا بما نسميه جماليات "المجال العام" من السقايات، والفوارات، والمفترجات، والميادين الرحبة، والأشجار الوارفة ...إلخ.

وقد عنى كُتَّاب الحكمة السياسية، بجوانب معمارية وجمالية فى إنشاء الأمصار، ومن ذلك الشروط التى ذكرها الماوردى فى كتابه "تسهيل النظر" ومنها: سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والتربة، وقرب المكان مما تدعو إليه الحاجة من المراعى والأحطاب، وتحصين المنازل من الأعداء[٢٣]. وإن مراعاة معايير الجمال فى تأسيس المدن كان لا غنى عنه لضمان الصحة النفسية والاتزان العقلي لسكان المدينة ؛ فالمشاهد الجميلة، والألوان المتناسقة، والمساحات الخضراء والزهور المبهجة؛ كلها تؤثر إيجابيًا على المزاج النفسى العام؛ بخلاف مشاهد القبح والفوضى والعشوائية التى تضر بالصحة النفسية وتشجع على العنف وارتكاب الجرائم، ومن ثم إلحاق الأذى بالنفس، والمال، والنسل، والعقل، والدين فى آن واحد.

ولكن أحوال مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؛ تشير إلى ضعف ما يقدمه مبدعو الفنون الجميلة، وتكشف عن قلة الابتكار، وتؤكد التبعية لمدارس الفنون الغربية. وقد أسهمت بعض الرؤى السلفية المتشددة فى تكريس هذه الحالة، مثلما أسهمت بعض الرؤى المتغربة فى ذلك أيضًا. وكانت النتيجة هى ما نراه من تشوه فى الوعى، وتمزق فى الوجدان، واختلال فى عمليات التنشئة على المستويات الفردية والجماعية، ومن ثم تكونت أجيال مجروحة الهوية فى مختلف مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة. ويكفى أن نذكر هنا أن ثلاثة آلاف مدرسة أجنبية نشأت فى أرجاء الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر وحتى إلغاء الخلافة فى سنة ١٩٢٤؛ كانت تلك المدارس كفيلة بتكوين نخبة منفصلة عن هويتها ومعادية لأمتها نتيجة ما تلقته من

مقررات تربوية وفنية وتعليمية تنتمى لتراث فلسفى وحضارى له مقاصد وغايات لا تنسجم بالضرورة مع غايات المجتمعات الإسلامية ولا مع مقاصدها العامة.

ولعل أهم ما يكشف عنه التاريخ الحديث والمعاصر للفنون فى مجتمعاتنا الإسلامية هو أنها أصبحت في خدمة عمليات إعادة تشكيل الوجدان الفردى والجماعى بعيدًا عن المرجعية الإسلامية ومقاصدها العامة. ونعتقد أن "الفنون الحديثة" فى بلادنا بجملتها قد أسهمت فى تعميق حالة الانقسام الثقافى بين اتجاهات متعارضة؛ بعضها يتمسك بهويته الموروثة، وبعضها ينفتح على هويات وثقافات أخرى وافدة. وكان من نتائج ذلك أن مجتمعاتنا تعيش سيناريوهات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية ليست فاعلة فيها ولا منتمية وجدانيًا إليها؛ بل كانت فى أغلب الأحوال مادة استعمالية لها. وبمرور الوقت زادت التحديات التى تواجه مبدعى الفنون الجميلة الإسلامية؛ وزاد انفصالها عن استلهام مقاصد الشريعة، وزاد ابتعادها عن خدمة هذه المقاصد. ويحتاج من يتصدى للإبداع الفنى والجمالى بمرجعية إسلامية إلى تأهيل رفيع المستوى، وحرفية بارعة، ورؤية فلسفية واسعة الأفق تستجيب لمقاصد الشريعة وتكون فى خدمتها؛ على النحو الذى كان عليه أسلافه من مبدعى الفنون الجميلة فى عصور الازدهار الحضارى الإسلامى.

ثانيًا: نظام الوقف ودوره فى تكوين الثروة الفنية

أسهمت بعض النظم الشرعية – كما أسلفنا– فى ظهور الفنون الجميلة وغرسها فى الوعى الاجتماعى العام. وكان نظام الوقف من أهم تلك الأنظمة الشرعية التى نمت فى ظلها الفنون الجميلة وتنوعت وازدهرت على مر العصور. وقد كشفنا فى دراسة سابقة لنا عن أن نظام الوقف الإسلامى كان له دور فاعل وحيوى فى خدمة المقاصد العامة للشريعة بصفة عامة[٢٤]. ونبين هنا كيف أن نظام الوقف قد دعم القيم الجمالية والفنية فى حضارتنا الإسلامية ووضعها فى خدمة مقاصد الشريعة أيضًا.

ونحاول هنا أيضًا الكشف عن بعض أسرار العلاقة بين نظام الوقف وآثار الفنون الجميلة؛ حيث لا يعرف الكثيرون أن الفضل يرجع إلى "نظام الوقف الإسلامى" فى وجود وبقاء عدد من المبانى والمنشآت الأثرية ذات القيمة التاريخية والفنية والمعمارية التى نستمتع بمشاهدتها، وتذخر بها معظم المدن والحواضر العربية والإسلامية. ومن أهم هذه الآثار الوقفية: المساجد، والجوامع، والأسبلة، والتكايا، والحمامات الشعبية، والأسواق، والقيساريات، والقصور، والقباب، والأضرحة والمقامات والعتبات المقدسة، والمزارات الشريفة. ومثل تلك الآثار تزينها- فى أغلب الحالات- نقوش بديعة، وزخارف ورسومات رائعة الجمال، فضلاً عن محتوياتها من أعمال الفنون الجميلة مثل التحف، والمقتنيات النادرة من السيوف، والمنابر، والمصاحف، والمخطوطات، والقناديل، والثريات، والأوانى، والمشغولات الذهبية والفضية، والسجاجيد، وما شابه ذلك.

من أين أتت العلاقة بين الوقف من ناحية ومقاصد الشريعة، والآثار وأعمال الفنون الجميلة الموروثة عن العهود الإسلامية السالفة من ناحية أخرى؟ وما الذى يفسر الارتباط بين نظرية عملاقة مثل "نظرية المقاصد"، ونظام اقتصادى اجتماعى ذى طابع دينى- هو الوقف- وبين عالم الفنون الجميلة والآثار؟ إن ثمة أكثر من مصدر لتلك العلاقة منها الآتى:

١ – قيام الوقف على فكرة "الصدقة الجارية" التى ذكرها الرسول – صلى الله عليه وسلم- فى حديثه الذى يقول: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أوعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[٢٥]. وأسهمت سعة أفق المسلمين الأوائل فى فهمهم للحكمة من فكرة "الصدقة الجارية" فى توسيع مجال الأعمال الخيرية، وفى دخولها كثير من هذه الأعمال فى حيز الفنون الجميلة. فقدماء العلماء لم يقصروا هذه الفكرة على مجرد إعطاء إحسانات نقدية أو عينية للفقراء وذوى الخصاصة؛ وإنما انطلقوا بها إلى كل ميادين الخدمات والمرافق العامة، وحولوها إلى مؤسسات نافعة منها: الجوامع، والمدارس،

والأسواق، ومشافى العلاج (البيمارستانات)، وأسبلة مياه الشرب النقية، والتكايا، والمكتبات العامة...إلخ. ولما كان الأصل المعنوى للوقف هو أنه عمل من أعمال التقوى، وقربة إلى الله تعالى طمعًا فى نيل ثوابه ودخول جنته، وبما أنه جل شأنه جميل يحب الجمال، وطيب لا يقبل إلا طيبًا؛ فقد اجتهد الواقفون على مر الزمن فى أن تكون قرباتهم الوقفية – تلك المؤسسات التى أشرنا إليها– فى غاية الإتقان، وآية من آيات الجمال الفنى والمعمارى الأثرى؛ وبخاصة أنها حملت أسماءهم –فى كثير من الحالات– وخلدت ذكراهم، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: الجامع الأزهر، وقبة السلطان الغورى، وسبيل محمد على بشارع المعز لدين الله، وشقيقة النعمان بالخيامية (وهى كلها من أوقاف وآثار مدينة القاهرة)، والجامع الأموى بدمشق[٢٦]، والتكية السليمانية التى أمر بإنشائها ووقفها السلطان سليمان بن سليم الأول على أنقاض القصر الأبلق للملك الظاهر بيبرس عند المدخل الغربى لمدينة دمشق، وهى من آثارها المعمارية الرائعة، وقد وردت أوصافها المعمارية فى حجة وقف السلطان سليمان القانونى[٢٧].

٢ – ساعد فى توثيق العلاقة بين الوقف والآثار والفنون الجميلة أن الفقهاء قد جعلوا للوقف حرمة مصانة، ولمؤسساته قدسية تجب المحافظة عليها. وقد تجلَّى ذلك فيما ذهبوا إليه من أن "شرط الواقف كنص الشارع فى لزومه ووجوب العمل به"؛ أى أن ما يضعه "الواقف" من شروط ومواصفات خاصة بكيفية إدارة الأعيان الموقوفة تكون ملزمة وواجبة التطبيق، كلزوم تطبيق الأحكام والأوامر الشرعية، سواء تعلقت تلك الشروط بإنشاء مؤسسات خدمية أو خيرية، أو تعلقت بمواصفاتها المعمارية والفنية، أو كانت ذات صلة بحجم الإنفاق عليها وصيانتها وتجميلها وتجديدها كلما لزم الأمر.

وقد دعمت الأحكام التفصيلية لفقه الوقف مبدأ حرمته، ومن تلك الأحكام ما يتعلق بصرف ريع الأعيان الموقوفة؛ إذ نصوا على أولوية الإنفاق على ما فيه بقاؤها، والمحافظة على المؤسسات الوقفية كالجوامع والمدارس والتكايا ...إلخ، حتى ولو استغرق هذا البند كل الريع. كما نصوا على تأبيد الوقف ودوامه، وحذروا من تبديله أو إلغائه، وخاصة إذا كان مخصصًا للخيرات والمنافع العمومية. وقرروا كثيرًا من الأحكام التى جعلت للوقف ولمؤسساته ومنشآته المختلفة "شخصية اعتبارية" قائمة بذاتها، ومستقلة عن شخصية الواقف وعن ذمته القانونية؛ بحيث لا تزول شخصية المؤسسة الوقفية بموت الواقف، بل تستمر وتبقى صالحة لتحمُل الالتزامات والتمتع بالحقوق.

وإذا أضفنا إلى ذلك أنهم أسندوا للقضاء سلطة الولاية العامة على الأوقاف، وعقدوا له وحده الاختصاص الولائى إلى جانب الاختصاص القضائى فى النظر فى جميع المسائل المتعلقة بالوقف وشئونه [٢٨]، فسوف يتضح لنا أن تلك القواعد الفقهية والمبادئ التشريعية والتقاليد القضائية قد أسهمت على نحو تلقائى– وغير متعمد– فى خدمة المنشآت والمبانى الأثرية؛ إذ أحاطتها بكثير من الضمانات المعنوية والقانونية التى كفلت لها البقاء والاستمرار؛ حتى صارت – بمرور الزمن– فى ذمة الآثار وفنونها الجميلة، ونظمتها القوانين والتشريعات الحديثة، ودخلت فى مسئولية هيئات حكومية رسمية مختصة بشئون الفنون والآثار والثقافة في البلدان الإسلامية.

٣- أسهمت التشريعات القانونية واللائحية الحديثة والمعاصرة أيضًا فى المحافظة على الآثار الوقفية وفنونها ومقتنياتها النادرة؛ وذلك بتنظيم مهمة الإشراف عليها وإسنادها إلى هيئات رسمية متخصصة. وكانت تلك الهيئات فى أول الأمر متمثلة فى الدواوين الحكومية للأوقاف أو وزارتها، ثم انتقلت إلى هيئات الآثار

والسياحة والثقافة؛ حسب النظام المعمول به فى كل بلد من بلدان العالم الإسلامى.

والحاصل هو أن "الوقف" كان إحدى آليات تكوين الثروة الفنية والأثرية ومصدرًا من مصادر تراكمها عبر العصور فى مختلف البقاع الإسلامية[٢٩]. ويدعم هذا الاستنتاج أن نموذج العمارة الوقفية قام على خمسة مبادئ رئيسية تمثلت فى: الإتقان والمتانة، والمنفعة والوظيفية، والنمو والبقاء، والذوق والجمال[٣٠]؛ وذلك طمعًا فى أن تلقى هذه الصدقات القبول من الله سبحانه. وكانت فنون العمائر الوقفية وجمالياتها ذات إشعاع روحى يبعث فى النفس الطمأنينة والراحة بما أنه تذكير دائم بمعنى الخير وأهميته فى دنيا الإنسان وفى آخرته؛ كما كانت ذات جمال مرئى عبرت عنه معايير الجودة والإتقان واختيار الأفضل لأنه قربة إلى الله تعالى. وحافظت أعمال الصيانة والترميم على بقاء تلك العمائر وزيادة قدرتها على تحدى عوامل التعرية. وإذا كان "الخلود" هو السمت الأول للآثار، فإن التأبيد هو السمت الأول للأوقاف الخيرية؛ ومن هنا ضمن سمت "التأبيد" دخول عديد من العمائر الوقفية فى ذمة الآثار، وضمن مبدأ "القربة" إبداع كثير من الفنون الجميلة فى تلك العمائر الوقفية.

ثالثا: الفنون الإسلامية فى مصر الحديثة

الفنون الإسلامية هنا المقصود بها فنون العمارة والخزف والزجاج والمعادن والنسيج، وما إلى ذلك من فنون تخدم غرضًا ما، أو تؤدى وظيفة معينة. وهى ما تعرف حديثًا بالفنون التطبيقية (وفنون العمارة هنا تشمل العمارة المدنية مثل المساجد والأسبلة والأسواق... والعمارة الحربية كالقلاع والحصون...).

ومن المعروف أن الفنان المسلم كان يعمل على توظيف فنه ليخدم وظيفة ما، فبدلاً من أن يقوم برسم صورة ما بغرض الرسم فقط، كان يزخرف بها إناءه أو سيفه... وهكذا.

وقد تنبهت الإدارة الحكومية المصرية الحديثة منذ عهد محمد على باشا إلى أهمية تلك المؤسسات الوقفية الموروثة عن العهود السابقة؛ باعتبارها مصدرًا من مصادر تكوين الثروة الأثرية فى مصر بصفة عامة. وحفظت لنا سجلات ووثائق تلك الفترة وقائع الاهتمام الحكومى الرسمى بالآثار الوقفية. ومن ذلك أنه حدث فى سنة ١٢٤٢هـ- ١٨٢٦م أن تقدم بعض الباحثين الإنجليز عن الآثار فى مصر بطلب إلى محمد على باشا للحصول على إذن منه ليسمح لهم بخلع عتبة "جامع الميرآخور" بباب النصر بالقاهرة؛ لأن على تلك العتبة خطوطًا أثرية قديمة، فكان جواب الباشا هو الرفض الشديد، وتقول الوثيقة التى سجلت الواقعة: أن محمد على طلب "تفهيمهم عدم جواز ذلك، وأن يقال إننا ما زلنا نسمح لهم بإعطاء كل حجر يجدونه فى مواضع مختلفة، فلا يصح أن نعطيهم الأحجار التى فى مبانى الجوامع أيضًا"(٣١).

واستمر هذا الاهتمام الرسمى بالمؤسسات الوقفية فى عهد محمد على. وتضمنت اللائحة الأولى لديوان عموم الأوقاف الذى أنشأه فى سنة ١٢٥١هـ- ١٨٣٥م نصوصًا كانت فى معظمها متعلقة بالمحافظة على الجوامع والتكايا وأسبلة المياه الموقوفة. كما أن اللائحة الثانية للديوان الصادرة فى سنة ١٢٧٦هـ- ١٨٥١م فى عهد عباس باشا الأول قد تضمنت نصوصًا مشابهة لما نصت عليه اللائحة الأولى بشأن حماية العمائر الوقفية.

ثم صدر فى ١٨٨١/١٢/١٨م أول دكريتو (قانون) بتشكيل "لجنة حفظ الآثار العربية القديمة" تحت رئاسة "ناظر عموم الأوقاف". وكان من المهام الرئيسية لتلك اللجنة حسب نص الدكريتو: "ملاحظة صيانة الآثار العربية وإخبار نظارة الأوقاف بالإصلاحات والمرمَّات المقتضى إجراؤها"، وذلك حتى يمكن للنظارة أن تطابق الإصلاحات المراد عملها مع "شروط الواقفين" المنصوص عليها فى حجج وقفياتهم بخصوص ما سيتم إصلاحه، على أن يكون تمويل ذلك من ريع الأوقاف الداخلة تحت إشراف نظارة الأوقاف".

١ - حماية الآثار من مسئوليات وزارة الأوقاف

فى سنة ١٩١٨م صدر القانون رقم ٨ بشأن "حماية آثار العصر العربى" فى مصر. ونصت مادته الأولى على (أنه يعد أثرًا من آثار العصر العربى كل ثابت أو منقول يرجع عهده إلى المدة المنحصرة بين فتح العرب لمصر وبين وفاة محمد على فى منتصف القرن التاسع عشر؛ مما له قيمة فنية أو تاريخية أو أثرية، باعتباره مظهرًا من مظاهر الحضارة الإسلامية). ونصت المادة نفسها -أيضًا- على سريان أحكام القانون "على ما له قيمة فنية أو أثرية من الأديرة والكنائس القبطية المعمورة التى تُقام فيها الشعائر الدينية". وتكون وزارة الأوقاف هى المسئولة عن تسجيل تلك الآثار والإشراف عليها وصيانتها. كما نص القانون أيضًا على أنه "لا يجوز إجراء أى تعديلات أو تجديدات على تلك الآثار إلا برخصة من وزارة الأوقاف؛ بعد أخذ رأى لجنة حفظ الآثار العربية[٣٢].

وتشير الأعمال التحضيرية لذلك القانون أن الأعيان الموقوفة التى تنطبق عليها أحكامه شملت الجوامع، والخانقاوات، والأسبلة، ومخطوطات الكتب، والعُملات، والسيوف، وما شابه ذلك من المقتنيات الأثرية التى هى- فى أغلبها- من أعمال الفنون الجميلة. وكان آخر القوانين التى اطلعنا عليها بهذا الشأن: القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣م الذى أعطى صلاحيات واسعة للجنة المحافظة على الآثار الإسلامية، ومن ذلك حقها فى إخلاء أو إزالة التعديات على الآثار الموقوفة، مقابل تعويض بأوامر إدارية ودون اللجوء للقضاء.

ومن أسف أنه لا توجد إحصاءات رسمية شاملة بالآثار الوقفية فى مصر؛ والذى توصلنا إليه هو فقط إحصاءات جزئية لبعض الآثار فى بعض الأحياء بمدينة القاهرة مثل أحياء: الجمالية، والدرب الأحمر، والأزهر؛ وكلها إحصاءات تتعلق بالتعديات على الآثار الوقفية بتلك الأحياء[٣٣].

وقد استمر إشراف وزارة الأوقاف على قطاع الآثار إلى سنة ١٩٣٦م، ثم نُقل إلى وزارة المعارف فى تلك السنة، ثم أصبحت هناك هيئات رسمية متخصصة

بعضها يتبع وزارة الثقافة، وبعضها الآخر يتبع وزارة السياحة، وذلك فى أعقاب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م. وانحسر اختصاص وزارة الأوقاف عن هذا المجال، وأصبح مقتصرًا فقط على إدارة الأعيان الموقوفة واستغلالها اقتصاديًا؛ إضافة إلى الإنفاق على المنشآت والمبانى الأثرية صاحبة الاستحقاق فى ريع تلك الأوقاف.

٢ - تأسيس متحف الفن الإسلامى بالقاهرة لحفظ المقتنيات الوقفية

إذا انتقلنا إلى المتاحف الإسلامية وأعمال الفنون الجميلة التى تزخر بها، فسوف نلحظ الدور البارز للأوقاف فى إنشاء هذه المتاحف وإثرائها بفنونها المتنوعة. وتشير وقائع نشأة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة إلى أن التفكير فى إنشائه قد بدأ فى سنة ١٨٩٢م لجمع المقتنيات الوقفية ووضعها فيه وعرضها على الجمهور العام(٣٤). وفى سنة ١٨٩٩م طلبت "لجنة حفظ الآثار العربية" من الحكومة المصرية آنذاك أن تقوم بوقف بعض الأطيان الأميرية الحرة "على ذمة الأنتكخانة العربية"، ولكن اللجنة المالية، التى كان يسيرها صندوق الدين الأجنبى آنذاك رفضت فكرة الوقف، واكتفت بتخصيص ريع الأطيان للغرض المقصود تخصيصًا إداريًا فقط؛ والسبب هو أن صندوق الدين كان يعارض سياسة تحويل الأراضى الأميرية إلى الأوقاف، لأن وقفها كان يخرجها من دائرة نفوذه وسيطرته على مالية البلاد(٣٥).

وتكشف "وثائق لجنة الآثار العربية" – بما فيها وثائق تأسيس متحف الفن الإسلامى بباب الخلق بالقاهرة– عن عزم اللجنة آنذاك للعناية بتلك الآثار التى حفظتها المؤسسات الوقفية على مر العصور السالفة؛ وذلك من أجل إعادة توظيفها لتكون: "من وسائط الرقى فى الصناعة الشرقية، والمحافظة على خصوصية التراث، ولجذب السواحين"، على حد ما عبر عنه دكريتو تعيين قومسيون للآثار التاريخية بمصر(٣٦).

والزائر لمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة اليوم يجد كثيرًا من مقتنياته عبارة عن آثار وقفية من الثريات، ومنابر المساجد، والسيوف، والمشغولات الذهبية،

والمصاحف، والدروع، وغير ذلك من التحف النادرة التى تمّ جمعها من مصادر مختلفة؛ كان من أهمها المؤسسات والمبانى الوقفية القديمة. وتوجد فيه أيضًا بعض الوقفيات الأثرية التى خصصها الأمير يوسف كمال – من أعضاء الأسرة العلوية بمصر– التى وقفها تباعًا من سنة ١٩١٣م إلى سنة ١٩٢٧م. وقد سجل الأمير يوسف كمال وقفياته الأثرية بموجب أحد عشر حجة مسجلة بمحكمة مصر الشرعية، وكان أولها بتاريخ ٢٠ من محرم سنة ١٣٣٠هـ – ١٨ من فبراير سنة ١٩١٣م، أما آخرها فهو بتاريخ ٢١ من شعبان سنة ١٣٤٥هـ – ١٤ من فبراير ١٩٢٧م[٣٧].

٣- إنشاء أول مدرسة وقفية للفنون الجميلة

بادر الأمير يوسف كمال– أيضًا – بإنشاء أول مدرسة متخصصة فى تعليم أصول الفنون الجميلة وذلك فى سنة ١٩٠٨م . وكان مقر تلك المدرسة فى "درب الجماميز بالقاهرة" ، وأوقف عليها مساحة قدرها ١٢٧ فدانًا من الأراضى الزراعية الواقعة بزمام مديرية المنيا بصعيد مصر. وأوقف تلك المدرسة أيضًا عدة عقارات بمدينة الإسكندرية. وقد نص فى حجة وقفه على أن يصرف ريعها "فيما يلزم لتدريس وتعليم مائة وخمسين تلميذًا، يكون الثلثان منهم من المصريين، والثلث من الأجانب، بدون الالتفات إلى الجنسية والدين، ويكون تعليمهم مجانًا – بغير استثناء – العلوم العصرية التى منها الخطوط العربية، والنقوش البارزة، وأشغال العمارات، والتصميمات والرسومات وغير ذلك". وقد أجازت محكمة مصر الشرعية الكبرى حجة وقف الأمير بما تضمنته من تلك الشروط الفنية، وذلك بتاريخ ١٤ جمادى أولى ١٣٢٧هـ – ٣ يونيو ١٩٠٩م[٣٨].

ويستفاد من موافقة المحكمة الشرعية على تلك الحجة أنه لا مانع شرعى للوقف على مثل تلك الأغراض – الفنون الجميلة وتعلمها – طبقًا لما ورد بنص حجة الوقف؛ بما فى ذلك الموافقة على ما اشترطه الواقف من "أن يقوم بالتدريس مدرسون من فرنسا وإيطاليا، وأن تمنح ميدالية برونزية لكل من الطالب الأول والثاني من

الناجحين بالفرقة النهائية، مكتوب على أحد وجهي الميدالية "إنَّا فتحنا لك فتحًا مبينًا"، وعلى الوجه الآخر " تذكار من الأمير يوسف كمال"[٣٩]. ثم عاد الأمير وغيَّر من شروط وقفيته فى سنة ١٩٢٧م، وجعل ريعها مخصصًا لإرسال بعثات علمية من المائة وخمسين طالبًا ليتعلموا الفنون الجميلة فى جامعات فرنسا وإيطاليا.

وإلى الأمير يوسف كمال ووقفياته ومدرسة الفنون الجميلة – التى أشرنا إليها– يرجعُ الفضلُ فى اكتشاف "محمود مختار"(١٠ مايو١٨٩١– ٢٨ مارس ١٩٣٤)، وهو رائد فن النحت والتماثيل. ومن أشهر أعماله "تمثال نهضة مصر"، وله متحف معروف باسمه، ويعد مقصدًا لدارسى الفنون، وبخاصة فن النحت. ومن السيرة الذاتية لمختار عرفنا أنه قدم إلى القاهرة فى عام١٩٠٢ وعاش فى أحيائها القديمة. وعلى مقربة من منزله افتتحت مدرسة الفنون الجميلة التى أنشأها الأمير يوسف كمال فى "درب الجماميز" فى عام ١٩٠٨. وبعد أن التحق بصف أول دفعة، وهو فى السابعة عشرة من عمره. بدت موهبة مختار ساطعة للأساتذة الأجانب، مما حدا بهم إلى تخصيص "مرسم خاص" له، ضمن مبنى المدرسة، وذلك كى يتمكن من إعداد منحوتاته بها، من تماثيل مختلفة، وأشكال متنوعة تستعيد مشاهد الريف، وملامح رفاق الحى. ودفعت موهبته راعى المدرسة، الأمير يوسف كمال، إلى أن يبعثه، إلى باريس، كى يتم دراسته هناك. ومثلما نشأ مايكل أنجلو فى رعاية الأمير الفلورنسى لورنزو دى مديتشى، فقد نشأ محمود مختار فى رعاية الأمير المصرى يوسف كمال. وتلقى مختار أول الدروس فى الفن فى المدرسة الملحقة بقصر الأمير يوسف كمال. وكانت كما أسلفنا أول مدرسة وقفية متخصصة فى تعليم أصول الفنون الجميلة فى تاريخ مصر الحديث.

خـاتمـة

لا تزال بحوث النظرية العامة لمقاصد الشريعة مغرقة فى مضمونها "الأصولى"، وبعيدة جدا عن مضامينها التطبيقية ذات الصلة المباشرة بوقائع الحياة اليومية وما

تعج به من تحديات؛ كما أن البحوث التى تتناول الأنظمة والأنساق الفرعية التى خدمت النظرية العامة للمقاصد، ونمت وترعرعت فى ظلالها نادرة جدًا.

وقد حاولنا إلقاء بعض الأضواء على موضوع الفنون الجميلة وأهميتها فى الإسهام فى تحقيق "مقاصد الشريعة" بمعناها الواسع الذى لا يختزلها فى جانب "الزجر والعقوبة"، وإنما يجمع بين طرفى تحصيل المقصد ابتداءً، وتنميته وحفظه وصيانته انتهاءً. ومن هذا المنظور المقاصدى تبين لنا أن أهمية الفنون الجميلة نابعة من كونها تعمل فى بناء الوجدان، وتهذيب النفس، وترقية الإحساس، ورياضة الروح بما يسهم فى حفظ الصحة العقلية والتوازن النفسى للإنسان. وعندما يصبح هذا الإنسان فى صحة عقلية ونفسية جيدة؛ فإنه يكون أقدر على أداء واجباته الدينية، والدنيوية، ومن ثم تتجلى أمامنا الصلة الوثيقة بين مقاصد الشريعة فى حفظ العقل وحفظ النفس وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ الدين من جهة، والفنون الجميلة بمختلف ألوانها كخادم لتلك المقاصد ومعينٍ على تحقيقها من جهة أخرى.

وقد لاحظنا من التاريخ الاجتماعى "للوقف" كنظام شرعى؛ أنه كان فى خدمة المقاصد العامة للشريعة. وأتينا على الثروة الفنية والآثارية الوقفية فى مصر. وبالإمكان متابعة هذه الثروة فى عديد من البلدان العربية والإسلامية كى نستوثق من أن الفنون الجميلة كانت على الدوام فى خدمة مقاصد الشريعة ومحكومة بقيمها وأخلاقياتها. وتذخر أغلب بلداننا بعديد من العمائر والمقتنيات الوقفية، بل إنها لم تقتصر على قطاع العمارة الدينية– من جوامع، وزوايا، وخانقاوات للمتصوفة، وتكايا– وإنما أسهمت أيضًا فى تكوين الثروة الأثرية والفنية لقطاعى "العمارة العسكرية" "والعمارة المدنية" من أسوار وقلاع وأربطة، وبيمارستانات، ومدارس، وخانات، وحمامات وقصور ومنازل، وأروقة، ورباع.

ولا ننسى كذلك أن حجج الأوقاف المحفوظة – مثلاً – بكميات كبيرة فى الأرشيفات والخزائن الحكومية (ويبلغ عدد الحجج المحفوظة فى أرشيف وزارة الأوقاف المصرية حوالى ١٢٠ ألف وثيقة يرجع تاريخها إلى القرنين الهجريين الثالث عشر

والرابع عشر فقط). هذه الحجج هى بحد ذاتها "قيمة" جمالية بما تحتوى عليه من زخارف كتابية، وخطوط تراثية، وتوقيعات، وأختام، ورنوك، مثلما تحفل معظم الآثار والمنشآت المؤسسية الوقفية بالزخارف الكتابية والنباتية.

إن إسهام الوقف فى تلك الجوانب الفنية والجمالية والمعمارية التى أشرنا إليها يؤكد – فى أحد أبعاده– على المعنى المدنى العميق لنظام الوقف، وأنه ليس نظامًا دينيًا مغلقًا، كما يظن البعض؛ وإنما هو نظام مرن ومتطور. وقد قام بدور ملموس فى دعم القيم الجمالية والفنية، وأسهم فى ترجمتها إلى ممارسة اجتماعية واقعية؛ هى فى جملتها وجه من وجوه "المجتمع المدنى" فى ظل الحضارة الإسلامية. وهذا الوجه جدير بالمحافظة عليه والعناية به، وخاصة أن سمة "الخلود" هى أبرز سمات الوقف الخيرى. و"الخلود" هو أبرز سمات الآثار والفنون الراقية. وهذه وتلك تعتز بها الأمم، وتعتبرها من رموزها الحضارية الباقية على مر الزمن وشاهدة على أصالتها.

المراجع

١– حسن الباشا، فنون التصوير الإسلامي في مصر، القاهرة، دار النهضة العربية، ب . ت، بتصرف من ص ٩– ص١٢.

٢ – هشام بن محمد ابن السائب الكلبي أبو المنذر، كتاب الصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٣، ١٩٩٥.

٣ – صحيح البخاري، جزء ٣ – ص ١٧.

٤– عبد الرحمن فهمي محمد، الشارات المسيحية، والرموز القبطية على السكة الإسلامية. مستخرج من كتاب المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية سنة ١٩٥٩م، ص٣٣٧.

٥ – حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٥٩م، ص١٥.

٦ – انظر: جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث: تراث الإسلام – الجزء الأول، ترجمة محمد زهير السمهورى وآخرين، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكتاب رقم ١١، ص٢٩٧.

٧ – لمعرفة مزيد من التفاصيل عن الخلفيات التاريخية لنشأة الفنون الإسلامية وتطورها وتأثرها بفنون الحضارات الأخرى انظر: عمر رضا كحالة، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، دمشق، المطبعة التعاونية، ١٩٧٢م، ص٥–ص٢١.

٨ – لمزيد من المعلومات عن أهم تلك المعارض الفنية الإسلامية التي أقيمت تباعًا منذ أواخر القرن التاسع عشر انظر: جوزيف شاخت، مرجع سابق، ص٣٢٢.

٩ – تم افتتاح "متحف السلام عليك أيها النبي" في مكة المكرمة مع مطلع العام الهجري ١٤٣٤هـ . يناير ٢٠١٣م . والمتحف يحتوي على ١٥٠٠ قطعة من الآثار وأعمال الفنون الجميلة القديمة التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو هي محاكاة لها. وهو توثيق لعصر النبي وصحابته الكرام . وقد لقي المتحف إقبالاً كبيرًا وترحيبًا واسعًا من جمهور المسلمين. الأمر الذي يؤكد أهمية الفنون الجميلة في مخاطبة الوجدان وترقية المشاعر، وغرس القيم النبيلة في نفوس الناس.

١٠– روجيه جارودي، وعود الإسلام، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٦، ص١٩٠.

١١– ابن سينا، كتاب النجاة، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ١٩٣٨، ص٧٩.

١٢– دومينيك أورفوا، تاريخ الفكر العربي الإسلامي. ترجمة رندة بعث، مراجعة سهيل سليمان، بيروت، المكتبة الشرقية، ٢٠١٠م، ص٥٤٠.

١٣– أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة للنشر، ب.ت، ج/٢/ص٣١٦.

١٤– أبو حامد الغزالي، مرجع سابق، ج/٢/ ص ٣٠٥.

١٥– المرجع السابق،ج/٢/ ص٣٠٦.

١٦– محمد عمارة، الإسلام والفنون الجميلة، القاهرة، دار الشروق، ١٤١١هـ– ١٩٩١م، ص٧.

١٧– المرجع السابق، ص١١.

١٨– على عزت بيجوفتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، القاهرة، دار النشر للجامعات، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص ص١٣٧– ١٧٦.

١٩– للإلمام بمجمل آراء طائفة كبيرة من فلاسفة الغرب وعلمائه انظر بصفة خاصة: محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م، ص ص٢٥–٤٩ وأيضًا الفصل الثاني من ص ص٦٥–٧٩.

٢٠– انظر: "الموسوعة الفلسفية" السوفيتية، إشراف ف. روزنتال، وب. يودين، ترجمة سمير كرم ، بيروت، ١٩٧٤، مادة الجمالي والأخلاقي.

٢١– أحمد مصطفى القضاة، الشريعة الإسلامية والفنون، بيروت، دار الجيل. عمان، دار عمار، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ص٢٥.

٢٢- منها مثلاً كتاب: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي بن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق فريد بن سليمان، تونس، دار النشر الجامعي، ١٩٩٩. وكتاب: زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، القاهرة، مطبعة مصر١٩٣٧. وكتاب: محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ١٩٨٨.

٢٣- أبو الحسن على بن حبيب الماوردي(ت:٤٥٠ هـ): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق ودراسة: رضوان السيد، بيروت، مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م.

٢٤- إبراهيم البيومي غانم، "مقاصد الشريعة في مجال الوقف"، في: محمد سليم العوا (محرر)، مقاصد الشريعة الإسلامية: دراسات في قضايا المنهج ومجالات التطبيق، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٦م. ص٤٢٥.٤٨٣.

٢٥- رواه الإمام مسلم في صحيحه.

٢٦- انظر مثلا: عفيف البهنسي، الجامع الأموي الكبير: أول روائع الفن الإسلامي، دمشق، دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر، ١٩٨٨.

٢٧- لمعرفة تفاصيل وقفية التكية السليمانية انظر: جعفر الحسني، التكية السليمانية في دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي- دمشق- الجزء الثاني- المجلد الحادي والثلاثون ١ نيسان/أبريل ١٩٥٦م/١٩ شعبان ١٣٥٧هـ . ص٢٢٢ - ٤٥٠.

٢٨- لمزيد من التفاصيل حول أصول البناء المؤسسي لنظام الوقف انظر كتابنا: الأوقاف والمجتمع والسياسة فى مصر، القاهرة، مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٦.

٢٩- كان للوقف دور كبير في تكوين الثروة الفنية والأثرية في الدولة العثمانية انظر لمحة عامة عن ذلك في: نعمان ترك أوغلو، مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني: الأوقاف والخدمات العامة. مجلة حراء - اسطنبول - العدد ٣١ - يوليو/أغسطس ٢٠١٢.

٣٠- نوبي محمد حسن، قيم الوقف والنظرية المعمارية: صياغة معاصرة، مجلة "أوقاف"، الكويت، العدد ٨، مايو ٢٠٠٥م.

٣١- دار الوثائق بالقاهرة- محفظة الأبحاث رقم ١٢٧- ملخص مكاتبة بتاريخ ٢٦ شوال ١٢٤٢هـ.

٣٢- انظر: الأوقاف والمجتمع والسياسة، مرجع سابق، ص١٥٩.

٣٣- المرجع السابق ، ص ١٦٠.

٣٤- انظر المكاتبة بشأن إقامة متحف الفن الإسلامي المؤرخة في ١٨٩٢/٦/٦م، فى: (دار الوثائق القومية- محافظ عابدين . محفظة رقم ١٦٣).

٣٥- انظر: الأوقاف والمجتمع والسياسة، مرجع سابق، ص٢٨٦-٢٨٧.

٣٦- من وثيقة محفوظة في: (دار الوثائق بالقاهرة- محافظ عابدين- محفظة رقم ١٦٣).

٣٧- جميع حجج الأمير يوسف كمال التي أشرنا عليها محفوظة في سجلات وزارة الأوقاف المصرية، ولها صور بملف التولية رقم ١٥٠٥ الخاص بمستندات أوقاف الأمير يوسف كمال.

٣٨- حجج وقفيات الأمير يوسف كمال، مرجع سابق.

٣٩- المرجع السابق نفسه.

Abstract

FINE ARTS IN THE LIGHT OF THE GENERAL PURPOSES OF THE ISLAMIC SHARI'A

Ibrahim El Bayomi Ghanem

This study aims to analyze the relationship between Fine Arts, and the theory of the general purposes of the lslamic Shari'a. The key question here is: ls it possible to achieve the general objectives of the lshari'a in the social reality without the employment of Fine Arts in its service? Among the most important findings of the study we find that some legitimate systems had contributed to the creativity of many of the Fine Arts, and the arts turn had contributed to the achievement of the purposes of the lslaimc Shari'a as well as to improve the quality of life of the lslamic civilization in general.